اللهم صلي على محمدِِ وآله الطيبين الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إطروحة فلسفية

dr. Sajid Sharif Atiya سجاد الشمري

مقـدمة

تنبــــيه .......... هذا البحث كان قد ارسل في ايميل احد المؤمنين لشخص اخر بعد فترة سرق البريد الالكتروني, ولانعلم من السارق , وبعد مدة من الزمن نزل هذا البحث (تغيير بعض اللفاظ) بمواقع ومنتديات بإسم احد الشيوخ اللامعين المتصدين للفتوى ؟ ونحمله المسؤولية الشرعية وحقوق الحماية الفكرية .

ان كل فن من الفنون تتقوم ذاته بغاية من الغايات, وغرض من الاغراض سواء كان للعلم موضوع واحد, وقد عرضت عليه العوارض والمسائل, كما في الفلسفة الاولى حيث ان العوراض وموضوعات العلوم, تعرض على موضوع جامع بين مسائله, وهو الوجود او الموجود, او كان مما ليس له موضوع كلي يجمع مسائله, كما في غالب الفنون من علم اصول الفقه, وعلم الفقه, والعربية ونحوها, ولكن يقوم غرض من الاغراض بها وغاية من الغايات.

ولتلك الغاية والغرض يشرح ارباب الفنون كل عدّة من المسائل التي يترتب عليها غرض غير الغرض من مجموع مسائل اخرى, ويعدون كل مجموعة من المسائل, اذا قام بها غرض غير الغرض القائم بالمسائل الاخرى, علماً في مقابل الاخر. [[1]](#footnote-2)(1)

الاشرفية والافضلية

إن الممكن الأخس ـ أي العالم المادي الذي يجيء في مرحلةٍ تالية من العالم العقلي ـ إذا وجد في الخارج المقتضي وجوباً بـ ((الممكن الأفضل والأشرف)) أن يغدو في درجات العالم المادي وما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد .

وقيل ان إفلاطون[[2]](#footnote-3)(2) له شرف الأسبقية في محاولة الأستدلال الأشرفية التي تعاضد الأنسان لنجاح نظريته في ((المسائل العقلية)) وعلى هذا ذهب قائلاً :

((إن الموجودات التي نراها في عالمنا المادي لا تتصف بصفة الكمال المطلق ، فلا بد أن يكون لها مثال كامل في عالم آخر يختلف عن هذا الذي يسمى بعالم الكون والفساد أنه عالم العقول المفارقة للمادة)) [[3]](#footnote-4)(3) .

وجاء بعده تلميذه المعلم الأول أرسطو على هذا النهج .. قال [[4]](#footnote-5)(4) في مطارحته أنه : استفاد من تلك الاطروحة من إشارة إجمالية لأرسطو .. فانه قال في كتاب السماء والعالم : يجب أن يعتقـد في المعلومات ما هو الأكـرم والاشرف[[5]](#footnote-6)(5).

والحقيقة تقال : ان مجرد الانشغال بوجود الأفضل والأشرف من ناحية المبدأ خير شاهد على وجوده حتى فيما لم يوجد في العوالم العقلية لما استهدفه الأدراك العقلي .

وعلى هذا الاساس .. يجب على رائد الفكر الفلسفي أن يكتشف الحقيقه ، ليتعبد بها.

إن الأشرفية لها وجود ستراتيجي بارز من لدن المفكرين ، وأولت لها عناية خاصة ، وغدت قاعدة فكرية لها أبعادها الموضوعية في عدة موضوعات من المباني الفلسفية الأخرى.

ومن نتائجها بادر أبو علي الحسين بن عبد الله ( بأبن سينا) ، ورتب على هذه المسألة : ((نظام الوجود في سلسلتي الخلق والبعث)) .

والشيخ في موضوعه عن العقول العرضية أي : المثل النورية ، ونص كلامه :

((المجرد المحض أشرف من المجرد المتعلق ، والروح المرسل أشرف من الروح المضاف)) و((إذا كان المجرد المتعلق ـ أي الروح المضاف ـ موجوداً ، فليكن المجرد المحض ، أو الروح المرسل موجوداً قبله)) .

وبعده بزمن ليس بالقصير .. تطرق صدر المتألهين (صدر الدين الشيرازي) لها. بشرح فلسفي بقوله :((قاعدة شريفة برهانية عظيمة الجدوى كريمة موادها متوفرة فوائدها جليلة منافعها)) .

وفي ضوء هذه الكلمة العريقة في التاريخ الفلسفي .. نهض بالادلة الفلسفية الاستدلالية على صحة الأشرفية .. وخلاصة ما ذهب اليه (وبعضهم ربطها في حدوث العالم) ، وفق حلقة التسلسل العقلي الذي بدأ بـ ((العقل الأول)) الذي له مساران وجوبي وإمكاني، ولذا أطلقوا عن هذا الواجب بـ ((الغير)) والممكن بـ ((الذات)) كما مبين في محـله بالكتب المختصة المتداولة توضيحاً وتحليلاً ونقداً .

ومن هذا المسار ينطلق ملّة صدرا (صدر الدين الشيرازي) بالأشرفية :

((إن الممكن الأخس إذا وجد عن الباري تعالى ، لابد أن يسبقه وجود الممكن الأشرف ، وذلك لأن الباري جلت عظمته الذي هو في غاية الكمال ، ولا يتطرق إليه شائبة النقصان ، لا بد أن يكون أول ما يصدر عنه أشرف الموجودات التي هي المثال العقلي التام المبرءة من كل نقص وشين)) .

وإذا نظرنا بتأمل إلى التسلسل التاريخي لوجدنا ان الاشرفية تهيمن على مفكري الفلسفة بشكل عام ، وبخاصة المتأثرين بفكر صدر المتألهين .

كقول السبزواري :

((هذه قاعدة شريفة عظيمة الجدوى ومن فوائدها إثبات أرباب الأنواع ، وقد إستنبطها الشيخ الأشراقي من كلام للمعلم الاول ، وقد أشرنا إلى دليلها المذكور في الكتب بقولنا :

الممكن الأخس إذا تحققا فالممكن الاشرف فيه سبقا

لأنه لولاه إن لم يفض فجهة تفضل حقاً يقتضي

وان أخس فاض قبل الاشرف علل الاقوى عندذا بالاضعف

وان مع الاشرف في الصدور فواحد جاء مصدر الكثير

والنور الاسفهبد إذ يبرهن عليه فالقاهر أيضاً كائن[[6]](#footnote-7)(6) .

وكما قال قائل, أنها من حيث المبدأ لا تفسر العجز الموجود في الظواهر الطبيعية بأنها عجز في العلة ، ولا في وجود الله بوصفه المطلق ، بل العجز كل العجز يرجع إلى الذات المعلول ، وعدم طاقته الفاعلة لتلقي الفيض من المولى الكريم.

وعلى اساسها يذهب فريق من المفكرين إلى أن الظاهرة الطبيعية بكل ما فيها من قوى وعناصر النموذج الأصيل للخير والعطاء, مئة بالمئة .. والشر هو الفساد لم يكن له وجود يذكر على صخرة الواقع ، وذلك لأن الأول يتسم بكل سمات الخير والعطاء, محال أن يخلق ظاهرة طبيعية لا فائدة فيها.

وقول القائل (حتى جهنم وعذابها العسير خير وعطاء بالنسبة إلى تحقيق الغرض المقصود منها فيه تأمل).. والخير والطبيعة كلمتان جدليتان مترابطتان ، وكذا الشر والفساد كلمتان جدليتان مترابطتان كذلك . ثم ان مّن يقول (كل ما في هذه الظواهر الطبيعية من أشياء شريرة على ما نعتقد فيما هي الا عناصر خير بالذات .. واننا لانكتشفها وأعتقدنا أنها شراً ، أو فيها مصلحة تؤدي إلى حصيلة خيرة وبالملازمة تغدو خيرة بالعرض) وجوابه, كل شيء خلقه الله تعالى فهو خير لا محالة ولكن اعتقادنا بالشر المودع عندنا فنعتقد هو شر ولايمكن صدور منه الشر للانه هو خير, ولا يصدر من الخير إلا الخير.

قال صدر الدين الشيرازي :

((الشر موجود في الطبيعة وكثير ، ولكن خير الطبيعة أكثر من شرها ، ونفعها أكثر من ضرها .. أن الذي إحترق ثوبه بالنار قد تضرر بسببها ، ولكن إذا قسنا هذا الضرر البسيط ، إلى منافعه بالنار طوال حياته لم نجده شيئاً مذكوراً .. وهذان في الشخص الواحد .. فكيف النوع ؟.. ان الاشخاص الاصحاء من افراد الإنسان والحيوان اكثر بكثير من ذوي الافات والعاهات)).

إذن ... فالـظاهرة الطبيعية بما فيها من أشـياء وقضايا خير وعطاء، وسعادة مئة بالمئة .

إن الاشرفية ، قفزت إلى نقلة نوعية في المنطلقات العقائدية حتى استدل البعض, بها على اعجاز القرآن كتاب الله المحفوظ الاخير, من أمور قائمة فيه يعجز الناس عن مجادلتها كأحكام نظمه ، ودقة معانيه ، وروعة اسلوبه .. إلى غير ذلك من الامور التي اعدها المختصين وجوهاً لأعجازه ، وذلك لأنها تهدف بان قول الله تعالى أفصح القول وأبلغه ، بما أنه معجزة الدهر التي لا يقف لها أحد، ولا يأتي بمثلها إنسان.

نعم .. هذا ما تدلي به الاشراقية بان في قدرة الله سبحانه إنزال قوله في منتهى صور الفصاحة ، وألوان البلاغة والبيان.

ومع هذا كله .. فقد طرح بعض الباحثين في الاعجاز القرآني نظرية تناقض تلك النظرية القائلة :

ان العرب انما عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن بعشر سور مثله مفتريات ،او بسورة واحدة من مثله ، لأن الله تعالى قد ((صرفهم)) عن ذلك ، وامسكهم أن ينهضوا له .. ولو نهضوا له وقالوا لكان في استطاعتهم أن يقولوا مثل قوله؛ لأنه من جنس الكلام الذي جرى على افواههم .

ولعل أول من ذهب, هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار, الرأس الشاخص في مذهب المعتزلة .

يقول : ابو الفتح الشهرستاني :

((وزعم النظام ان اعجاز القرآن بـ ((الصرفة)) أي ان الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ، لكن اعقاهم أمـر خارجي))[[7]](#footnote-8)(7).

إن كتاب الإسلام المحفوظ الاخير .. هو كلام الله جلت قدرته ، ومستحيل أن يقاس به أي كلام .. فهو لهذه معجزة خالدة في ذاته ، قد أخرس في معجزته فرسان البلاغة ، وقادة الخطابة ، وسادات القوافي ، وملوك البيان .

ولو كان في واقع الامر قد أعجز أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان ... بإرادة تكوينية ، وقوة قاهرة غير منظورة عنه لما كان كلام الله أبداً.

ولو كان كتاب الله تعالى على تلك الخصوصية .. لكان لأبناء يعرب فيه رأي غير الذي قالوا فيه، ولما خرسوا أمام فصاحته ، وبهروا من روعة نظمه، وجلال طلعته، ووقع كلماته على مجامع القلوب التي جاءتهم منه حين سمعوه ، وعقلوه.

ولو كان كتاب الله تعالى .. مرتكزاً على هذا الامر المعجز ـ أي على أن العرب صرفوا عن معارضة القرآن صرفاً لما كان لنزوله الذي لا يلتقي مع شعر الشعراء في وزن ولا قافية ، ولا مع سجع الكهان وثقله وتكلفه ، ولكان يمكن أن يستغني عنه بأدنى شيء يقطع ما بين الرسول الاعظم الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) وبين أمته من حوار وأهوال .

وهذا القول في ((الصرف)) في منتهى الوهن والسقوط لأن الكثير من العرب البلغاء تصدوا لأجهاضه ومعارضته ، فلم يتمكنوا من ذلك ، بل وأرتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، بل وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة ما بعدها معجزة, في نورها الرباني ، وتتألق في جمالها القدسي .

الحادث بالقديم

عُرّفَ القدم بتعاريف لفظية, كالوجود الذي لم يكن بعد العدم, ولم يسبق به, واختار بعض أنه الوجود الذي لم يكن بعد غيره, وآخرون بأنهُ الوجود الذي لم يكن بعد غيره, وآخرون بأنه الوجود الذي لم يكن بعد العلّة, بل هو العلة وهذهِ التعاريف لفظية وليست حقيقية ولا ماهوية, فإن اتصاف الوجود بأنهُ لم يسبق بالعدم ليس من باب الجنس والفصل ولا الجنس والخاصة ولاتعريفاً حقيقياً وإن كان التعريف بأنه الوجود الذي لم يكن بعد غيره أعم من غيره, والذي يظهر من كلماتهم هو الترادف وأنها تشير الى معنى واحد.

وأما الحادث فعرفوة " بأنه الوجود الذي يكون بعد العدم أو بعد غيره أو بعد العلّة " فأخذوا في تعريف الحادث القديم إشارة الى المعنى لاتقييداً للشيء, بحملهٍِ الاولي الذاتي أو الحمل الشايع الصناعي[[8]](#footnote-9)(8).

قالوا : هل يمكن شد الحادث المسبوق بـ ((العدم المشمول بالزمان)) الذي له بداية ، كما سيكون له نهاية ، فهو لم يكن ، ثم كان ثم لا يكون بـ ((المبدأ القديم)) الذي ينزه عن الحدوث لا بداية له ، ولا نهاية .. أنه أبدي أزلي ..

إذن .. فالعوالم مهما كانت ، أو تكون .. مادية أم مجردة .. كلها ممكنة ، أي : مستحدثة سبقها العدم الازلي ، وأرتبطت في حلقاتها المتسلسلة بالمعلول الواحد القديم ، وليس هذا الا من قبيل فصل المعلول عن العلة .. وقد تقرر أن المعلول لا ينفصل عن العلة ؛ بل عند وجودها ، وبعدمها ينعدم مباشرة .

إضافة إلى ذلك .. لا يمكن التصريح بصحة التسلسل، لأن التسلسل الامتناهي الذي يصل بالنهاية إلى شاطيء العلة الاولى شريطة أن يسبقه العدم، وإلا لزم إنفصال المعلول عن علته .

وهنا .. ينكشف التباين والتضاد .. فيجب وضع حل فلسفي في جدلية [[9]](#footnote-10)(9) الحادث بالقديم .

ونقول : يمكن حلها من منظور الحركة الجوهرية :

أجل .. ان الذات والحقيقة في الاشياء والظواهر الطبيعية قد لا توجد على سبيل النهج التكاملي التام في لحظة ، بل توجد بصورة تدريجية ، وتستنفذ طاقاتها رويداً رويدا .. ومن ثم يحصل التغيير ، وحسب مراحل التكامل الذاتي .. وهي في كسب جديد مستمر هو معنى حركتها ونموها في نفسها، ولهذا ـ كذلك ـ تقفز قفزة من شيء إلى آخر ، وتصل في حلقات تكاملها من القوة إلى الفعل، ومن الارض السفلى إلى العرش الاعلى ، وتصعد إلى حضيرة البناء الفوقي إن كان لها النجاح، أو تنزل إلى منحدر البناء التحتي ان كان لها السقوط .

وقد تقرر أن عملية الاستكمال الذاتي لا يمكن أن يدرك الاعلى ضوء هذا المبدأ.

وكذلك تتابع ظواهر متعددة يوجد كل ظاهرة منها بعد الظاهرة قبلها، وتعطي المجال العريض بزوالها الظاهرة ليست بقديمة، فلم يكن هذا إزدهاراً وعقلانية، ومن ثم لم يكن حركة، وانما شكل من أشكال التطور والتجدد بصورة مطلقة.

إذن .. فمعنى الحركة في المفهوم الفلسفي :

((خروج الشيء من القوة إلى الفعل تدريجياً أو يسيراً)) ويتقرر هذا المعنى أن الحركة لم تكن في الحقيقة عبارة عن زوال الشيء زوالاً على وجه التعميم .. ووجود شيء آخر جديد ، وانما هي في واقع الحقيقة تغيير وتجدد الشيء في مراحل الوجود .

وعلى هذا يحتم أن تستوعب كل حركة على وجود واحد دائم عند أول إنطلاقه إلى أن تركد .. وهذا الوجود هو الذي يتحرك بصورة داخلية ذاتية، أي : على نحو التدرج والارتقاء في زمان قليل أو كثير وبشكل دائم .. وكل مرحلة تعبر عن مرتبة من مراتب ذلك الوجود الواحد ، وهذه المراتب انما تخلق بالحركة ، فالموضوع المتحرك لا يملكها قبل الحركة ، والا لما وجدت حركة من الاساس .. بل هو في أول التحرك يتمثل لنا في قوى وطاقات ، وبالحركة تستنفذ تلك القوى والطاقات ، ويستبدل في كل مرتبة من مراتب حركة الامكان ((الواقع والقوة بالفعلية)) كما هو الحال في المادة المتغيرة التي تتغير بصورة حركية تدريجية قد لانحّس بها في ظاهر الامر والعيان؛ بيد أنها حقيقة واقعية مستمرة تحدث للاشياء، فان الإنسان كذلك يتدرج في هذا التغيير حتى يبلغ نهايته ، ويتلبس بالصورة الإنسانية[[10]](#footnote-11)(10) بدءاً من البويضة إلى النطفة ، ومروراً بالجنين إلى الطفل ، ووصولاً إلى المراهقة ثم إلى الرجل السوي .

إن هذا الكائن المتغير الحي في مرحلة مؤطرة من حركته هو نطفة بـ ((الفعل)) بيد أنه في ذات اللحظة أمر آخر ، بل للنطفة ، واحسن منها من ناحية الارتقاء فهو جنين بـ ((القوة)) .

والمقصود من هذا كله : أن عنصر الحركة في هذا الكائن قد إرتبطت جدلياً فيها ((الفعل والقوة سواء بسواء)) فيما لو لم يكن في الكائن الحي قوة مرحلة جديدة وطاقاتها لما وجدت في الحقيقة حركة ، ولو لم يكن أمراً من الامور بـ ((الفعل)) لكان لا وجود له من الاساس ، ولا توجد حركة كذلك .

فالتجدد والتغيير يتكون بإستمرار من أمر بـ ((الفعل)) وأمر بـ ((القوة)) .

وهكذا دواليك تبقى وتدوم الحركة مادام الامر يحتوي على ((الفعلية والقوة سواء بسواء)) وعلى ((الوجود والامكان سواء بسواء)) فإذا استنفذ الامكان، ولم تبق في الامر طاقة فاعلة في مرحلة جديدة ماتت عناصر الحركة ..

وهذا هو معنى :

(( ان كل حادث زماني مسبوق بعدم زماني يحتوي على قوة الشيء ويحمل قابليته )) .

وهذا هو ـ كذلك ـ معنى :

((خروج الشيء من القوة إلى الفعل، أو اتحادهما في الحركة)) [[11]](#footnote-12)(11) .

وهذا هو واقع الحركة في المفهوم الميتافيزيقي[[12]](#footnote-13)(12) .. التي تتوهم فيها المادية الديالكتيكية[[13]](#footnote-14)(13).. بالتناقض الموجود المستمر في المحتوى الداخلي للأشياء .

ومن خلال الشرح عن نظرية الحركة العامة للتغيير بمفهومها العميق الدقيق .. تكتشف واقع حقيقي لمعنى الحركة الجوهرية .

إذن .. لابد من القول ـ كذلك ـ بان المدارس الفلسفية حاولت في وضع الحلول لهذه المشكلة من خلال هيمنة الدورة الفلكية في الاشياء والظواهر الطبيعية .. وهم يحاولون أن يجعلوا حركة الافلاك واسطة الصلة الجدلية بين الحادث والقديم كالتالي:

لكل حركة على نحو الشمول عنصران :

عنصر الثبات : ولم يكن فيه أي تجدد وتطور .. ويطلقون عليه بـ ((الحركة التوسيطية)) ، وانها تجدد الطبيعة الفلكية ، وبما أنها الجسم بين المبدأ أو المنتهى .. وهذا شيء ثابت يرسم الحركة القطعية ، وبهذا الشكل يمكن اعتبار الحركة حالة بسيطة ثابتة لا إنقسام فيها ..

وعلى سبيل الفرض : أن جسماً متحركاً ومتجدداً كان موجوداً منذ القدم وحتى الابد .. فالحركة بهذا الشكل أي : من القدم إلى الابد حالة واحدة ثابتة .. هذا ويمكن أن يكون معلولاً لعلة قديمة ، ولا يلزم منه الانفصال .

وعنصر التغيير : ويطلقون عليه بـ ((الحركة القطعية)) وهي عبارة عن قطعة ممتدة منها التي ترسمها الحركة التوسيطية ، وبهذا المعنى يغدو موضوعاً متغيراً في كل اللحظات .. فهي ذهنية لا وجود لها في عالم الوجود ، لعدم جواز إجتماع الاجزاء ، أي : ما لم ينمحي جزء منه لا يوجد جزء آخر ، وإلا كان قراراً وسكوناً ، لا متغيراً ومتطوراً .

وبناءهم على هذا .. أن نقطة الثبات للحركة الفلكية بما أنها قوة دائمة ـ بلا إنقطاع ـ منسوبة إلى العلة الأولى صادرة منها ، ومن نقطة تبديلها تغدو واسطة لوجود الحوادث (العولم) وصلتها بالعلة الاولى القديمة .

ولكنّ صدر المتألهين, لم ير ذلك حلاً ، بل يرى المشكلة لا زالت قائمة, كذلك، لأن حقيقة المشكلة هي نسبة المتغير إلى القادة ، وإنطلاق عنصر الحركة من الاشياء والظواهر الطبيعية الفلكية، وبرؤية إنسجام وملائمة ناموس العلة للمعلول ، والإيمان بقرار الاشياء الطبيعية واستقرارها محال إنطلاق الحركة من الجوهر الفلكي القادة المستقر .

ومن ثم .. يتجه في وضع الحل الفلسفي الهادف.. وهي على نهج الفلاسفة في الحل ، بيد أنه على ضوء نظرية الحركة الجوهرية العامة[[14]](#footnote-15)(14) في الافلاك .

وعلى هذا الاساس فالحركة الجوهرية في خطوطها العريضة لها طريقتان متباينتان :

1 ـ قارة ..

2 ـ ومتطورة ..

الطريقة القارة : هي الطابع الفعلي للجوهر الفلكي ، وهي مثل العناصر : ((الجوهرية ، والعرضية ، والسطحية)) موجودة في عالم العلم الالهي .. ومطبوع بـ ((ذات العقول الكلية)) .

والطريقة المتطورة : هي التي تتغير ذاتها وطابعها الجوهري الفلكي في جميع اللحظات ، ومن ثم .. فالحركة بأعتبارها قارها وإستقرارها منسوب إلى العلة القديمة الاولى .. بأعتبارها تطورها وتغيرها عامل صلة جدلية بين الحادث والقديم .

ولا تفرق هذه الطريقة عما ذهب اليه الفلاسفة ؛ ولكنّهم يستدلون في ذلك على الحركة الوضعية للأفلاك .. وصدر المتألهين يستدل على ضوء الحركة الجوهرية العامة لها .

علم الباري عز وجلّ بالأشياء

ان علم الله ـ جل جلاله ـ بـ ((الاشياء)) لا بد أن يكون بـ ((الاضافة الاشراقية)) .. أي أن كل الممكنات المستندة إليه حدوثاً وبقاءاً مفاضة من ذلك الفيض الألهي المقدس ، وأمره الواحد التكويني .. بمعنى أنه ـ سبحانه ـ عالم بكل المخلوقات .. سواء أكانت على صعيد الذوات ، او على صعيد المعاني ، او على أي صعيد آخر ..

إذن .. فهو عالم بكل الموجودات ، وبكل المستجدات بأسبابها ومسبباتها .. التي يعرفها العلماء المفكرون ، فإن التصورات المطبوعة في ذهنية العلماء مخلوقة لواجب الوجود ، فهو عالم بها بطريق أولى ..

لأن العلم له ممكن ، وما أمكن في حقه واجب له .

ولأن الجهل نقص ، والنقص عليه من المستحيلات ..

ولأن.. هو (الله تعالى) حقيقة بسيطة مجردة محصنة ، وكل مجرد عاقل لذاته وعلمه بذاته ..

ولأن هو تعالى معطي الكمال لا يكون فاقده .. أو أنه مجرد وكل مجرد عاقل بذاته ، وذاته عين العلة لكل شيء من الاشياء .

ومن هنا .. ألا يلفت نظرك الشريف, أنه قد ثبت أن العلم بالعلة ـ بكل فصائلها وروافدها وإعتباراتها وحيثياتها اللازمة لها ـ عين العلة بالمعلول ، أي : أن علة الموضوع إذا غدت غير مستورة من لدن الذات .. شريطة أن تغدو غير مستورة؛ لأن المعلول فصيل من فصائل العلة ، وشكل من أشكاله ، فالعلة بذاته؛ إنما هو علمه بمخلوقاته ومعلوماته بلا إستثناء .

إن الموجودات القائمة على أساس التأطير التي هي الممكنات كلها منطوية تحت مظلة تلك الذات الواحدة المجردة ، لأن بسيط الحقيقة, كل الاشياء وليس بشيء منها .. وحيث أن ذاته غير مستورة من لدنه ..

إذن .. فكل الاشياء ، والاحوال ، والموازين ، والتقادير .. بواقعيتها وذواتها وهوياتها .. غير خفية عنده تعالى ، ومحيط بها .. إحاطة حقيقية جزئية وكلية، ومجردة ومادية ، وبسيطة ومركبة .. ولم يكن علمه بالصورة حتى يفترق إلى مسارين : إجمالي وتفصيلي .. فإذا كانت الممكنات ، بكل شرائحها ، وبكل ذواتها منكشفة من لدن الله تعالى بوصفه المطلق على سبيل العلم الحضوري، وليس على سبيل العلم الحصولي؛ لأن العلم الحضوري مقيد في إطار علم المجرد بذاته المقدسة، أو بمعلولاته .. وذلك لحضور حقيقة المجرد وذاته عند ذاته؛ لأنه حقيقة نورية .. فلا تغيب ذاته عن ذاته المقدسة.

إذن .. فلا استحالة في أصل المسألة .. يغدو الكشف كشفاً تفصيلياً البته؛ لأن معطي الشيء لا يمكن بحال أن يكون فاقد للشيء .. وهذا هو المقصود بأقواله سبحانه وتعالى وسنته الشريفة على لسان أهل بيت الرحمة عليهم السلام :

((يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور)) [[15]](#footnote-16)(15).

((ويعلم سرهم ونجواهم)) [[16]](#footnote-17)(16).

((ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)) [[17]](#footnote-18)(17).

((الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد)) [[18]](#footnote-19)(18).

((والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)) [[19]](#footnote-20)(19).

((والله يعلم ما في قلوبكم)) [[20]](#footnote-21)(20).

((والله بكل شيء عليم)) [[21]](#footnote-22)(21).

((وكان الله بكل شيء محيطا)) [[22]](#footnote-23)(22).

((عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين)) [[23]](#footnote-24)(23).

((لقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد)) [[24]](#footnote-25)(24)

وقال مولانا وسيدنا, وسيد المتألهين الامام علي (عليه السلام) :

((لم يحلل في الاشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، وتحجبه البطون عن الظهور ، ولا يقطعه الظهور عن البطون ، وانه بكل مكان، وفي كل حين وأوان ، ومع كل إنس وجان ، ولم يقرب من الاشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها باحتراق ، ولا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ، ولا كرور لفظة ، ولا إزدلاف ربوة ، ولا إنبساط خطوة في ليل داج ، ولا غسق ساج يتفيأ عليه القمر المنير ، ولا تعقبه الشمس ذات النور في الأفوال والكرور ، وتقلب الازمنة والدهور ، من إقبال ليل مقبل ، وإدبار نهار مدبر ، قبل كل غاية ومدة ، وبعد كل حصاء وعدة)) .

وسُئِلَ الامام الصادق (عليه السلام) : أيعلم الله الشيء الذي لم يكن ان لو كان، كيف يكون، او لا يعلم الا ما يكون ..

قال (عليه السلام) :

((إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الاشياء .. قال عز وجل : (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .. وقال لأهل النار (ولو ردوا لعادوا لما نوا عنه وانهم لكاذبون) ، فقد علم الله عز وجل : أنه ردهم لما ردوا لما نهوا عنه .. وقال للملائكة لما قالوا : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟.. ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك .. قال : اني اعلم ما لا تعلمون) فلم يزل الله عز وجل علمه سابقاً للاشياء قديماً قبل أن يخلقها فتبارك ربنا وتعالى علواً كبيراً، خلق الاشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء ، كذلك لم يزل ربنا عليماً سميعاً بصيراً)) [[25]](#footnote-26)(25) .

وسئل (عليه السلام) كذلك : عن الله تعالى .. اكان يعلم المكان قبل أن يخلق المكان ، ام علمه عندما خلقه وبعدما خلقه ؟..

قال : ((تعالى الله ، بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه ، كعلمه به بعدما كونه ، وكذلك علمه بجميع الاشياء ، كعلمه بالمكان)) [[26]](#footnote-27)(26) .

وإذا حاولنا أن نفسر شمولية علم الباري تعالى بانه عالم منذ الازل بكل شيء من الاشياء والى أبد الابدين .. فهذا التفسير من أخطر الموضوعات الشائكة في المباحث الكلامية والاعتقادية.

والحق يقال: ان إمضاء هذه المسألة على صعيد العقل في منتهى الاشكال. فنستدل بـ ((الحكم العقلي)) مضافاً على ما تقدم.

1 ـ ان علم الله تعالى الازلي بكل الاشياء منذ القدم، وعلمه كذاته أزلي.

كما على ذلك كافة الموحدين من الفلاسفة والمتكلمين ..ماعدا هشام بن عمر القوطي (من المعتزلة) ، والجهم بن صفوان (من المجبرة) .. فإنهما, يزعمان من ناحية المبدأ أن العلم لا يتعلق بالمعدوم إطلاقاً ، ولا يقع الا على موجود ، وان واجب الوجود لو علم أزلاً وأبداً بكل الاشياء والاحوال والتقادير كلياتها وجزئياتها وقبل وقوعها وتكوينها لما حسن منه الجزاء ، أو العقاب ، او الثواب.

2 ـ ان عنصر العلم ذا مسارين لا ثالث لهما : أما في صميم إستكشاف الواقع .. أو ما يوجبه ، شريطة له من رؤية بديهية .. فان قلنا: ان الله عالم بكل شيء على صعيد أزلي شريطة أن نلتزم بوجود كل شيء في الموضوعات الخارجية ، او الذهنية من وجهة أزلية .. مع أنه لا يلتزم بهذا الطرح أي باحث، وناقد ، ومنظر .. فإن الممكنات أساساً غير موجودة من منطلق أزلي، والمبدأ الاول لا صفة ذهنية له حتى ترتسم فيه الصور ، بل هو وجود مطلق .. هذا مع أن صورة الشيء لا تنبثق الا من إدراك الشيء، ولو بأي لون من الالوان، وهذا أول الكلام .. فاذن ليس من المعقول معنى أن الله عالم بكل شيء على صعيد أزلي، فنكشف أن الاجتماع بين الامرين غير ممكن من منظور عقلي.

لا يصدر من الواحد إلا واحد

{ إن البسيط من حيث ذاته ليس له إلا جهة ذاته, ويستحيل أن يكون هناك جهة أخرى, فلابد, وإن يكون المعلول الأول واحداً, إن تكثرت المعلولات بحسب الوسائل, ولو كان هناك حيثيتان, فإما أن يكونا خارجيين عن حقيقة الواجب, فيلزم إحتياج الواجب في فاعليته إلى أمر خارج عن ذاته, ولازمه الدور, وإن توقف على أمور وراء ذلك فلازمهُ التسلسل, وإن كان جزء من حقيقة فيلزم أن يكون البسيط مركباً, وإن كان الجزء خارجاً عن ذاتهِ, فليزم الدور والتسلسل.

وقد ردّ بعضهم هذا الوجه وجوز التعدد في المعلول, لأن الواجب له اعتبارات وصفات سلبية, وانه قيوم فإذا يجوز التعدد في المعلول من هذه الجهة كما قالوه في باب العقل الأول من كونه مفاضاً, وكونه صادراً عن الواجب وكونه ذا ماهية وإمكان, ومن هذا التعدد تعددت المعلولات.

والجواب أن السلوب ليس إلا أمور اعتبارية ترجع الى معنى واحد وهو أنه ليس بممكن, فلا تعدد بخلاف العقل الأول فإنه يرجع الى أمور واقعية, ومن أجل ذلك تعددت المعلولات, وقد أختفلوا في أن المعلول الأول, هو العقل الأول, كما عليه غالب الفلاسفة أو الوجود المنبسط والنفس الرحماني وعليه العرفاء, وقد جمع بين الأمرين صدر المتألهين, فقال الوجود : " السبحاني إنه بعين تحققه وفي أوائل ثنوته ينطبق على العقل " ولا يخفى ما فيه من عدم البرهان لما ادعوه.} [[27]](#footnote-28)(27)

ومن يروم إحصاء ما للفلاسفة والمتكلمين من أقوال متعددة ، واجتهادات مختلفة .. ان هذه المسألة يكون ((كمن يطلب الانوق أو الآبق العقوق)) فاختلافهم, تطرحك في بحر لجي، والى أغوار ليست بذات قرار مكين.

لقد كانت الشاغل الاول من لدن الفلاسفة المتأخرين .. فمنهم من سلّم بها ، ومنهم من رفضها .

وقبل ذلك كانت في مدرسة الفكر اليوناني القديم .. وكانت قائمة على أسسها الكثير من النظريات الفلسفية.

و((ان الفارابي هو أول من قال بالصدور ، وأنه ربما متأثر بالمعلمين النصارى لما في صدورهم من تقسيم ثلاثي ، هذا هو الظاهر .. وأما في الجوهر فهي أفلاطينية)) [[28]](#footnote-29)(28) .

ويدعم محمد عبد الهادي أبو ريدة في حاشيته مقولة فورمس حيث قال الاخير :

((ان الفارابي هو أول من أدخل مذهب الصدور في الفلسفة الإسلامية، حيث لا يوجد بيان لهذا المذهب في رسائل الكندي المعروفة)) [[29]](#footnote-30)(29) .

ويعتقد إرون روزنتاك : لم يكن الا رائداً وممهداً بدليل تسميته بـ ((المعلم الثاني)) .. ويعتقد كذلك أنه : في الواقع رسم البداية لأتصال الفلسفة الاغريقية بكل فروعها بالعقيدة الإسلامية[[30]](#footnote-31)(30) .

في الوقت الذي نرى إبن رشد فيلسوف قرطبة وقع في إشتباه, عندما قال:

((إن أرسطو واصحابه لم يعرفوا هذا المذهب ؛ وانما روجه بين العرب ابن سينا وأصحابه)) [[31]](#footnote-32)(31) .

ويمكن أن هذا القول خلاف الواقع التأريخي من جهة .. ليست من جهتين :

أما من منظور الجهة الاولى ، فهو على حق ، لانه في القرن الثالث الميلادي ، وفي مدرسة الاسكندرية .. برزت النظرية التي نعرفها عن المجدد افلوطين[[32]](#footnote-33)(32) الذي حاول ايجاد علاقة جدلية بين الفلاسفة والدين لدعم ومساندة معتقده المسيحي السائد حينذاك ولقد واقع الفارابي[[33]](#footnote-34)(33) ومن بعدهِ في منحدر في هذا الاشتباه ، لأن : ((تاسوعات افلوطين)) نسبت إلى ارسطوا[[34]](#footnote-35)(34) إشتباهاً ، ودام هذا الأشتباه حقبة تأريخية طويلة من الزمن ، وسار على هذا المنوال الفلاسفة الأسلاميين ، ولولا هذا الزعم, لما ألف الفارابي كتابه : ((الجمع بين رأيي الحكيمين)) ، وكشف فيه النظريات.

وأما من منظور الجهة الثانية ، فهو ليس على حق ، بأعتبار أن الاسبقية للفارابي، وليست لأبن سينا[[35]](#footnote-36)(35) بل وأعترفوا رواد هذه النظرية من بعده, بأنه وضع الحلول لنظرية الفيض بخصائصها الجزئية والكلية فقد ، عبر عنه:

((أفضل من كل السلف)) [[36]](#footnote-37)(36) .

وثم فخر الدين الرازي[[37]](#footnote-38)(37) فيسير على نفس الخط وهو يعبر بهذه الكلمة :

((رئيس الحكماء على الاطلاق)) [[38]](#footnote-39)(38) .

ونجد أبو حامد الغزالي[[39]](#footnote-40)(39) عندما حاول ان يفن أقوال الفلاسفة من منظور متكلم أشعري في كتابه : تهافت الفلاسفة .. واستعرض النظريات في كتابه : مقاصد الفلاسفة .. صرح عن نهجه في البحث قائلاً :

((سأقتصر على بيان مذهب الفارابي ، وابن سينا ، لأنهما أقوم المتفلسفة في الإسلام بالعقل والتحقيق)) [[40]](#footnote-41)(40) .

وهكذا صرح ابن خلكان ، والبيهقي والشهرزوري[[41]](#footnote-42)(41) ، وحاجي خليفة.. أن إبن سينا تتلمذ واستفاد[[42]](#footnote-43)(42) من مؤلفات الفارابي .

إن مسألة ((الابداع)) لم يكن لها أثر بذكر في الفكر اليوناني القديم الذي لا يسلم بالوجود من اللاوجود .. لذلك نجد فلاسفة اليونان قبل افلوطين يصرحون بقدم العالم ، وظهرت في القرن الثالث نظرية الفيض التي نعرفها عن افلوطين الاسكندراني ـ كما أشرنا ـ ليطرح حلاً علمياً لمسألة خلق العالم وحدوثه .

ويمكن ـ هنا ـ إيجاز ما استدل به الفيضيون على صحة هذه النظرية بهيكلها العام بما يلي :

يجب أن تكون بين ناموس العلة والمعلول عملية تنسيقية ، وخصوصية متجانسة .. قائمة على اساس قاعدة ((لزوم السنخية والتناسب بينهما)) .

ببيان أوضح : ان العلة لأمر ما .. شريطة أن تغدو فيها علاقة وخصوصية تؤثر في عمق تلك العلاقة والخصوصية في معلولها الخاص .. والإ يوجب أن تؤثر كل أمر في كل أمر ، وتلك العلاقة والخصوصية الموجودة في العلة هي التي تشخص المعلول الخاص .. وهذه العملية التنسيقية ، والخصوصية المتجانسة سواء بسواء ، هي علة مقتضية لوجود المعلول .. ولولا وجود العلاقة والخصوصية بينهما لما استدعت العلة وجود معلول خاص ، ولكان صدور السعرات الحرارية عن القوة النارية دون المصادر التبريدية ، وصدور التبريدية عن الماء دون القوة النارية ترجيحا بلا مرجح، مادامت العلاقة في التيه بين الطرفين .

وعلى أساس هذا العرض .. يجب أن يغدو معلول الواحد المجرد .. واحداً مجرداً شبيه علته ، وإلا وجب أن تغدو العلة ذات مسارين ، أو أكثر ، كما هو الشأن في معلوله .

ثم أن العلة المجردة البسيطة المحضة من حيث هي لم يكن لها اجزاء مادية ولا أجزاء عقلية مطلقاً .. شريطة أن تغدو هيمنتها في المعلولات العديدة بالخصوصيات العديدة ، وهذا عكس المطلوب ، لأنه يوجب تركيب العلة من الخصوصيات العديدة التي يختلف بها كل معقول عن المعلول الآخر .

وإذا صرحنا من أن العلة المجردة البسيطة المحضة الواحدة .. ينطلق منها اكثر من معلول ؛ بيد أن كل رافد منها يتسم بالحقيقة البسيطة المجردة الواحدة .. فيغدو المقصود من هذا أن المعلولات هذه تأتلف في حالة ، او لم تأتلف في حالة أخرى .. فان إتلفت من ناحية المبدأ لم يكن هنا مورداً لأعتراض .. وأن لم تأتلف فعدم الأتلاف يباين الحقيقة البسيطة المجردة الواحدة ..

من هنا .. فالموجود الذي هو في واقع الحقيقة نفس الوجود ، لانه في منتهى التجرد لا حيثيات متعددة فيه ، ولا إرادات متجددة فيه .. شريطة أن لا ينطلق منه اكثر من واحد ، لذا ذهب أصحاب النظرية إلى أن أول ما إنطلق وصدر عن الواهب الكريم .. شريطة أ يغدو مجرداً بسيطاً لا تركيب فيه من الاجزاء الخارجية ، ولا من الاجزاء العقلية .. لأن المركب مفتقر إلى أجزائه ، وهو غير مفتقر إلى شيء .

ومن هنا .. صرحوا أن أول ما خلقه الله هو : ((العقل البسيط)) الخالي عن المادة ، والمقدار أي : الزمان .. وهذا المعلول الأول لم يكن جسماً .. بيد أن العقل البسيط بعد إنطلاقه من المبدأ الاول يغدو مؤطراً وممكناً .. إعتباره إعتبار المخلوقات الموجودة هنا وهناك .

إذن .. فالعقل البسيط له زيادة شيئان :

واحد : بـ ((واجب الوجود .. وعلى هذا السبيل يغدوا واجباً بالغير وبسيطاً)) .

إثنين : إمكانه بالذات .. بـ ((معنى إعتباره مركباً من الحد والمحدود ، ومن العلة المركبة ، ويمكن صدور المعلول المركب)).

قال اللاهيجي :

((إن الفاعل المستقل إذا كان واحداً من جميع الجهات ، بحيث لا يكون فيه كثرة الاجزاء ، ولا كثرة الوجود والماهية ، ولا يكون متصفاً بصفة حقيقية زائدة في الخارج ، أو إعتبارية زائدة في العقل ، ولا يتوقف فعله على شرط وآلة وقابل .. فلا يمكن أن يصدر عنه في مرتبة واحدة إلا معلول واحد .. سواء كان الفاعل موجباً ، أو مختاراً إختياره وإرادته نفس ذاته .. والحكماء يسمون لمثل هذا المختار الفاعل بالرضاء ، وأما إذا كانت إرادته وإختياره زائدة على ذاته .. وهو الذي يسمونه الفاعل بالقصد فهو خارج عما نحن فيه؛ لأنه فيه إثنينية بالفعل : سواء تعددت إرادته ، أو تعلقها ، أو لا .. فلا يكون واحداً من جميع الجهات)) [[43]](#footnote-44)(43) .

والذي يجب التنبيه اليه ، ولا يسوغ الذهول عنه بحال أن رواد نظرية الفيض .. قالوا : ان العقل الاول لم يخلق مباشرة ، بل صدر منه عقل ثان ، وجسم فلك وصورته ـ نفسه ـ وذلك لثنائيتة ، لأنه ممكن بذاته ، وواجب بغيره ، وتفكيره بكل ، وبالله .. ينتج عنه شيئان .

عقل ثان ، وفلك بصورته وجسمه ـ الفيض هنا ثنائي .. أو عقل ثان ، ونفس، وفلك ـ الفيض هنا ثلاثي ..

وهكذا تتابع فيضان العقول حتى إلى آخر العقول .. هو العقل العاشر الذي يسمى بالعقل الفعال[[44]](#footnote-45)(44) .. فيصد عنه هيولى[[45]](#footnote-46)(45) كافة الموجودات السفلية، او الصدور، او البذور، او النفوس، والطبائع، والخصائص المميزة .. لأفراد واجناس وانواع الحيوان والإنسان والنبات والجماد .. ويولي العناية الكاملة الشاملة بقضاياها ، وهذا العقل يفيض على الافئدة البشرية المعقولات حسب طاقاتها وقدراتها ، ويشرق على الافئدة النظيفة الطاهرة ذات القابليات الهائلة ليستمد الفيض من العقل الفعال[[46]](#footnote-47)(46) .

ومن ثم .. إنطلقت الايديولوجيات الفلسفية لتفنيذ هذه النظرية من لدن الفلاسفة ، والمتكلمين ، والنقاد الباحثين القدامى منهم والجدد .. من أمثال : المحقق نصير الدين الطوسي [[47]](#footnote-48)(47)

وابن رشد[[48]](#footnote-49)(48)

أبو حامد الغزالي [[49]](#footnote-50)(49)

وفخر الدين الرازي[[50]](#footnote-51)(50)

والشهرستاني[[51]](#footnote-52)(51)

وأبو بركات البغدادي[[52]](#footnote-53)(52)

وابن تيمية[[53]](#footnote-54)(53)

والبير نصري نادر[[54]](#footnote-55)(54)

وسويتمان[[55]](#footnote-56)(55)

وحمودي غرابة[[56]](#footnote-57)(56)

وسليمان دنيا[[57]](#footnote-58)(57)

وخليل الجٌر ، وحنا الفاخوري[[58]](#footnote-59)(58)

وجوزيف الهاشم[[59]](#footnote-60)(59)، وحسام الدين الألوسي[[60]](#footnote-61)(60) وغيرهم .

ولنأت إلى البيان بجملة من النصوص الناقدة الموجزة فقط بـ ((خصوص نظرية: لا يصدر من الواحد الحقيقي الا شيء واحد)) :

أولاً : يذكر الغزالي هذه النظرية في المسألة الثالثة من المسائل العشرين[[61]](#footnote-62)(61) وهي في أن قولهم بـ ((ان الله فاعل العالم هو مجاز وليس بحقيقة)) .. وينظر الغزالي إلى هذا الامر في ثلاثة وجوه : في الفاعل ، وفي المفعول ، ثم ما يصدر عن الواحد .. وبما أننا نناقش المسألة من زاوية واحدة نطرح الوجه الاخير ، واهمه الانتقاد العام . وهذا نصه :

((يستحيل كون العالم فعلاً لله على أصلهم ، لأنهم قالوا : لا يصدر عن الواحد الا شيء واحد .. والمبدأ واحد من كل وجه ، والعالم مركب من مختلفات ، فلا يتصور أن يكون فعلاً لله بموجب أصلهم ، ويجيب الفيضيون : هذا صحيح من حيث المبدأ .. بيد أننا نرى أن سبب الكثرة تعدد الوسائط[[62]](#footnote-63)(62) .

ويعتقد الغزالي بأنه :

((يلزم عن هذا التعدد للوسائط ، ومن قولكم عن صدور الواحد عن الواحد الا يكون شيئاً مركباً ، بل تكون الموجودات كلها آحاداً ، وكل واحد معلول لواحد وعلة الواحد .. وليس الامر كذلك ، إذ عندهم الجسم مركب من هيولى وصورة ، وكذلك الفلك له نفس وجسم فمن أين صدر المركب. فأما يبطل قولهم : لا يصدر عن الواحد الا واحد .. وأما يلتقي واحد بمركب))[[63]](#footnote-64)(63).

وللعلم نذكر .. أن للغزالي تعليقة على مذهب الفيض ، وبواسطة الاعتراضات الفلسفية ، مايلي:

((ما ذكرتموه تحكمات .. وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل به سواء مزاجه)) [[64]](#footnote-65)(64) .

وفي موضوع آخر يتساءل :

((فماذا تقولون أنتم .. أتزعمون أنه يصدر من الشيء الواحد من كل وجه شيئان مختلفان .. فتكابرون المعقول .. او تقولون المبدأ الاول ـ الله ـ فيه كثرة .. فتتركون التوحيد .. او تقولون لا كثرة في العالم .. فتنكرون الحس .. او تقولون لزمت بالوسائط .. فتضطرون إلى الأعتراف بما قالوه)).

الغزالي :

((أنه لم يخض في هذا الكتاب خوض ممهد ؛ وانما غرضنا التشويش ، وقد حصل على أن نقول القول صدور إثنين عن واحد هو مكابرة للعقول ، دعوة باطلة لا تعرف بنظر أو بضرورة .. وما المانع في أن يقال : أن الله عالم قادر مريد يخلق المختلفات والمتجانسات ، وقد وردت به الأنبياء المؤيدون بالمعجزات ، فيجب قبوله .. أما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالأرادة ، ففضول، وطمع في غير مطمع)) [[65]](#footnote-66)(65) .

والثاني : ابن رشد يفند هذه النظرية بأكثر من مائة صفحة .. منها قائلاً:

((إن أصحاب هذه النظرية انما إنتبهوا اليها من جراء تشبيههم الفاعل الذي في الغالب ـ الله ـ بالفاعل الذي بالشاهدٍ ، فلزم عن ذلك أن الفاعل ذاك يخلق موجوداً واحداً بعينه ، وفي ذلك ما فيه من غض من شأن الله ، وتقييد لفاعليته المطلقة ، إذ أن الله فاعل مطلق يصدر عنه فعل مطلق لا يختفي بمفعول دون مفعول ، فلم يمتنع عليه إيجاد الكائنات البسيطة منها والمركبة)).

وأضاف يقول :

((ثم ان دعواهم أن الكثرة ، او التركيب تدخل على الموجودات من جراء العقل الاول باطلة أيضاً ، لأن العاقل والمعقول هو شيء واحد لدى العقل البشري ناهيك بالمعقول المفارقة .. فمن أين تطرقت الكثرة إلى الكون))[[66]](#footnote-67)(66).

والثالث : الخواجة نصير الدين الطوسي .. إتخذ من ملاك العملية الاستدلالية إثبات النظرية حجة عقلية على نقضها حين يقول :

((لا يصدر من الواحد الحقيقي غير الواحد ، لأنه لو صدر منه معلولان في رتبة واحدة ، وجب بالضرورة أن يكون صدور كل منهما عنه بحيثية غير الحيثية التي صدر بها الآخر .. فهاتان الحيثيتان إن كانتا داخلتين في ذات الواحد الحقيقي لزم أن يكون واحد حقيقياً ، وهذا خلاف المفروض ، وان كانتا خارجتين ، فالكلام فيهما كالكلام في نفس المعلولين ، فإذا بطل الفرضان ، فالصادر الاول واحد ، وهو العقل الاول .. هذا تقرير كلام الحكماء ، ومقتضاه : أن تكون العلية مطلقاً بالحيثية ، لا بالذات ، لأن العلية بمعنى واحد، وسنخ فارد في جميع المورد ، فعليه يجب أن يكون صدور المعلول الواحد بحيثية واحدة ، كما كان صدور المعلولين بحيثيتين إثنين .. فهذه الحيثية الواحدة التي لو قطعنا عنها النظر لم يوجد معلول أصلاً ، إن كانت داخلة في ذات الواحد الحقيقي لزم خلاف المفروض ، وإن كانت خارجة ، فالكلام فيها كالكلام في نفس المعلول .. فالحكماء غافلون عن هذه القواعد التي مهدوها ، إن صحت توجب أن لا يصدر من المبدأ الاول ـ الله ـ الذي هو واحد حقيقي معلول أصلاً ، وتسد في جوههم باب المعرفة ولم نجد دليلاً لما إدعاه الحكيم من الفرق بين الصورتين بآن ذات الواحد الحقيقي بنفسها وبحسب حقيقتها البسيطة تكون علة للصادر الأول الواحد ، وإذا تعدد المعلول في مرتبة واحدة كانت ذاته علة بالحيثية لا بنفسها ..فالسنخية في زعمه مخصوصة بعالم التكوين ، وبمحيط المادة والمدة .. وجل المبدأ الاول تعالى عن ذلك علواً كبيراً)) [[67]](#footnote-68)(67) .

والرابع : رفض الفيضيون تفسير صدور كثرة عن الله بواسطة تعدد الآلآت، أو المواد .. على أساس أن هذه إن كانت فعل الله تعالى ، فقد صدر عن الله أشياء كثيرة ، وإن كانت ليست كذلك لم يكن الله تعالى مصدر كل شيء .. واختاروا حلاً ثالثاً وهو : أن صدور اكثر من واحد عن الله سببه تعدد الوسطاء والاعتبارات .. ويعترض : ((سوتيمان)) بأن نفس المشكلة التي إنتقدوا بها التفسيرين السابقين قائمة وهي : [[68]](#footnote-69)(68)

أ ـ من أين للوسيط الاول القدرة على فعل أكثر من شيء ، وليس لله نفس ذلك ؟.. من أين جاءت هذه القدرة ، إن كان من الله فقد صدر عن الله شيء يتصف بالوحدة والكثرة معاً ، أي أنه موجود متكثر ، او فيه قدرة للكثير ، وإن كانت ليس من الله ، فالله ليس مصدر كل شيء ، فان قيل إن معلول الاول كثرته مستمدة من صلته بالله ، ومن الوجود الذاتي ـ كواجب وممكن ـ أي بسبب إعتبارات عقلية ، فيجب نسبة هذه الأعتبارات إلى الله ، كما فعل الصوفية ، حيث ميزوا في الله بين الأحدية والهوية والانية .

ب ـ الصدور عملية بلا إرادة ـ تكرار لنقد المتكلمين والغزالي .

والخامس : ذهب حسام الدين الآلوسي .. يقدم عرضاً في دراساته عن مذهب الفيض .. وبالتالي يعرض خمسة نقاط سلبية فيه .. ويهمنا من ذلك ما يلي :

((قولهم لا يصدر عن الواحد الا واحد .. هو نفس مسلمة الماديين الاول .. فالمادة عند الأخيرين شيء واحد ، وتعذر بعد ذلك عليهم تفسير تنوع الأشياء.

وبالنسبة للفيضيين غلب عليهم المنطق الشكلي الأروسطي مبدأ ذاته ، وعدم التناقض من جهة ، وتجافوا معها واقع الاشياء وتغيرها الخ .. من جهة ثانية : عندما ألغو هوية الاشياء ، وأرجعوا المادي إلى العقول والعصور ، وأرجعوا الاشياء إلى بعضها في خط تجريدي ، ينتهي بالغاء المادة وهويات للاشياء ولكنهم من جهة أخرى فسروا الاشياء تفسيراً شكلياً دون النظر إلى محتوى الاشياء ، يتضح ذلك في معالجتهم الواقع والاشياء الطبيعية معالجة ميتافيزيقية لا هوية ، وتحت تأثير منطق شكلي نظري بعيد عن الواقع ، لأن الواقع متغير وتكثر وهنا نعيد نقد إبن رشد لهم من أنهم رتبوا العلم الطبيعي على مباديء العلم الألهي ، وكان أولى بهم أن يبدأوا من العلم الطبيعي من المتحرك، والطبيعي لفهم عالم الطبيعة والاشياء)) [[69]](#footnote-70)(69).

إن هذه النظرية لا موجب من التسليم بها .. التسليم بخلق العالم الاكبر والأصغر .. وفق حلقات التسلسل العقلي الذي سلم بها مذهب الفيض .

لو تنازلنا على سبيل الفرض : أن هذه النظرية من حيث المبدأ حقيقة بديهية مسلّمً بها في ملامحها ، وفي خصائصها يمكن القول :

بان عالم الوجود بما أنه في مساره حقيقة واحدة لا نزاع في حقيقته، بيد أن القوة والضعف هما اللذان يشخصان بين أفراده فـ ((ان الواحد الأزلي البسيط لم يصدر منه غير الواحد)) الذي هو الوجود المشترك لعنصر الحقيقة الواحدية الوجودية التي يتشخص بعضها عن البعض الآخر بـ ((القوة والضعف)) .

ولكن .. هذا الطرح مع كونه يحتوي على القدرة العقلية ، والطاقة الفكرية .. ولكنّهُ, لا يجد مردوداً إيجابياً من المشائيين رواد الفلسفة الارسطوطاليسية ، الذين ذهبوا, إلى أن لعنصر الوجود حقائق متضادة في جوهره واعراضه .

أجل .. لقد غدا هذا الطرح الإيجابي مدعوماً من لدن الاشراقيين رواد الفلسفة الأفلاطونية الذين ذهبوا, إلى أن لعنصر الوجود كله حقيقة واحدة لا غير .. مادام الكون في جميع درجات وجوده عبارة عن درجات متفاوتة في الضعف والقوة .. كالنور والظلمة اللذان يضعفان تارة ويقويان تارة أخرى .

وعلى أية حال .. فان نظرية خلق العقل قبل كل شيء آخر في هذا الوجود لا تعارض المنظور الإسلامي ، فقد صدرت النصوص الدينية عن طريق أهل البيت عليهم السلام, تؤيد ذلك على رأي بعض الأعلام .. بيد أن الاشكال لازال باقي ، وهو :

تصور مسألة الخلق من العدم والابداع ، وفق حلقات التسلسل العقلي الذي ذهب اليها أصحاب الفيض لتفاديهم بنظرية : لا يصدر من الواحد الحقيقي مباشرة إلا شيء واحد.

ولكن ...بدا محذور قوله تعالى ((والله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار)) فالله تعالى فاض عنه عقل واحد ليس إلا ، فوجد فيه ثنائية الأمكان بالذات، والواجب بالغير .. وعن هذا العقل صنعت العقول العشر على مراحل التدرج، فتعالى الله , نسأله أن يهدينا لنور محمد وآله الطيبين الطاهرين.

والحمد لله أولاً وآخراً .... هو الصانع المبتدع لكل شيء

dr. Sajid Sharif Atiya اعداد سجاد الشمري sajidshamre@hotmail.com

1. **(1) المثل الاعلى في الفلسفة ـ اية الله العظمى الشيخ محمد طاهر ال شبير الخاقاني قدس ج1 ص40** [↑](#footnote-ref-2)
2. **(2) (ت 347 ق . م)** [↑](#footnote-ref-3)
3. **(3) المنظومة ، الآمدي ، ص : 178** [↑](#footnote-ref-4)
4. **(4) ( ت587هـ )** [↑](#footnote-ref-5)
5. **(5) المنظومة ، الآمدي ، ص : 178** [↑](#footnote-ref-6)
6. **(6) شرح اللئالئ المنتظمة في علم المنطق والميزان ، لهادي السبزواري ، ص : 198 ، ط : 1367.** [↑](#footnote-ref-7)
7. **(7) الملل والنحل ، ج : 1 ، ص : 142** [↑](#footnote-ref-8)
8. **(8) المثل الاعلى في الفلسفة لسماحة اية الله العظمى الشيخ محمد طاهر ال شبير الخاقاني رضي الله عنه** [↑](#footnote-ref-9)
9. **(9) قالوا : بين هذه المسألة وتلك رابطة ((جدلية)) يريدون أن الرابطة حتمية .. وان الاولى لابد أن تفضي إلى الثانية .. وأن كليهما مشدودان مترابطان .. أنظر : العربية تواجه العصر ، للسامرائي ، ط: 1982 بغداد.** [↑](#footnote-ref-10)
10. **(10) لا يعني وصل إلى الكمال الطموح ، بل يستطيع السير نحو أعتاب العالم الفوقي .. حتى يصل إلى الكمال المطلق ، فيغدو مخلوقاً عقلانياً ، وخليفة الله في الارض ، وواسطة فيض إلهي.** [↑](#footnote-ref-11)
11. **(11) القوة .. عبارة عن : ((إمكان الشيء)) .. والفعل .. عبارة عن : ((وجوده حقيقة)) .** [↑](#footnote-ref-12)
12. **(12) مصطلح يطلق على كل آيديولوجيا ، أو حكم لا يعتمد على الحس والتجربة .** [↑](#footnote-ref-13)
13. **(13) هي نظرية الاحزاب الماركسية التي أسسها ماركس وانجلز ، وجددها لينين .. وتسمى هذه النظرية مادية، لأن منظورها إلى الكون مادي ، وديالكتيكي ، لأن نهجها في دراسة الظواهر الطبيعية ، والاجتماعية ، والفكيرية ديالكتيكي لا ميتافيزيقي .** [↑](#footnote-ref-14)
14. **(14) ان الفيلسوف صدر الدين الشيرازي (ت 1050هـ) هو الذي اكتشفها.. والذي يلتقي مع منظري المادية الجدلية في نظرية الحركة العامة بأختلاف واضح. وكذلك أن صدر المتألهين يفترق من ناحية المبدأ مع المادية الجدلية ، ويستدل بـ ((حدوث العالم المسبوق بالعدم المشمول بالزمان)) مما نكتشف على عدم الصلة من اكتشاف الحركة بصورها المختلفة وبين التصريح بـ ((القدم أم الحدوث)) ..**

    **ومن قال : يلتقي مع صدر الدين الشيرازي المنظور الماديون الدياليتيكيون في نظرية الحركة العامة، لأن وفاته عام ((1050هـ)) ، وولادة كارل ماركس العام 1818م .**

    **جوابه : وفاة صدر المتألهين لها الاسبقية من ولادة مؤسس المادية الدياليكتيكية بـ ((288)) عام.** [↑](#footnote-ref-15)
15. **(15) سورة غافر /19** [↑](#footnote-ref-16)
16. **(16) سورة التوبة / 79** [↑](#footnote-ref-17)
17. **(17) سورة الانعام / 59** [↑](#footnote-ref-18)
18. **(18) سورة الرعد / 8** [↑](#footnote-ref-19)
19. **(19) سورة المائدة / 99** [↑](#footnote-ref-20)
20. **(20) سورة الاحزاب / 51** [↑](#footnote-ref-21)
21. **(21) سورة البقرة / 282** [↑](#footnote-ref-22)
22. **(22) سورة النساء / 125** [↑](#footnote-ref-23)
23. **(23) سورة السبأ / 4** [↑](#footnote-ref-24)
24. **(24) سورة ق الآية 16** [↑](#footnote-ref-25)
25. **(25) بحار الانوار ، للمجلسي ، ج : 4 ، ص : 78** [↑](#footnote-ref-26)
26. **(26) بحار الانوار ، للمجلسي ، ج : 4 ، ص : 78** [↑](#footnote-ref-27)
27. **(27) المثل الاعلى في الفلسفة ج1 ص316 سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد طاهر الخاقاني رضي الله عنه**  [↑](#footnote-ref-28)
28. **(28) تاريخ الفلاسفة الاسلامية - لديبور - ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة - ص : 149 ، ط : القاهرة ، 1948 م .** [↑](#footnote-ref-29)
29. **(29) تاريخ الفلاسفة الاسلامية ، لديبور ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة حاشية المترجم على ص : 150.** [↑](#footnote-ref-30)
30. **(30) روزنتال :**

    **Rosenth Di 0E 0 I 0 I 0 : Poiticdi Thoujht In Me Dievdi Isiam 0 Snded 00 Cambvidge 0 Ig62 0 P 0**  [↑](#footnote-ref-31)
31. **(31) تهافت التهافت ، لأبن رشد(ت1198هـ) ، ص : 152 ، ط : بويج 1930م** [↑](#footnote-ref-32)
32. **(32) (ت270م)** [↑](#footnote-ref-33)
33. **(33) ( ت339هـ 950م )** [↑](#footnote-ref-34)
34. **(34) ( ت 322ق . م )** [↑](#footnote-ref-35)
35. **(35) ( ت1037م )** [↑](#footnote-ref-36)
36. **(36) ابن سينا** [↑](#footnote-ref-37)
37. **(37) ( ت606 )** [↑](#footnote-ref-38)
38. **(38) مناظرات في بلاد ماوراء النهر ، فخر الدين الرازي ، ص : 20 ، ط : حيدر أباد 1355هـ** [↑](#footnote-ref-39)
39. **(39) ( ت505هـ ــ 1111م )** [↑](#footnote-ref-40)
40. **(40) تهافت الفلاسفة ، ص: 8 ، ط : بويج / ومقاصد الفلاسفة ، المقدمة ، ط : القاهرة 1961م** [↑](#footnote-ref-41)
41. **(41) ( ت 643هـ )** [↑](#footnote-ref-42)
42. **(42) تاريخ الفلاسفة الاسلامية .. وستجد مصادر تصريحات هؤلاء الاعلام في بداية حديثه عن ابن سينا .** [↑](#footnote-ref-43)
43. **(43) الشوارق ، للآهيجي ، ج : 1 ، ص : 191** [↑](#footnote-ref-44)
44. **(44) هو الذي يهب عناصر هذا العالم الرهيب بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد صورها .. وهو الذي يشرف على أصقاع الارض وما فيها .** [↑](#footnote-ref-45)
45. **(45) هي كلمة يونانية مرادفة للمادة والجسم القابل للصورة الجسمية والنوعية (بمعنى تمام حقيقة الشيء وماهيته التي بها هو ما هو) وكل جسم يتألف من عناصر المادة والصورة .. وبأختصار : هي واحدة في كل الاشياء حتى في الحيوان والنبات والجماد ، وانما تتباين الكائنات بـ ((الصورة)) ليس إلا.** [↑](#footnote-ref-46)
46. **(46) بما أن هذه النظرية الفيضية هيمنة على أفكار الفارابي ، وابن سينا .. فقد ذكر (الالوسي في كتابه: دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ط : المؤسسة العربية للدراسات والنشر) كتب الفارابي التي ترد فيها النظرية مع تأشيرات.** [↑](#footnote-ref-47)
47. **(47) تحقيق المذهب الحق ، للطوسي (ت 672هـ ــ 1274م) ، ص : 15 .** [↑](#footnote-ref-48)
48. **(48) تهافت التهافت ،ص : 160 ، ط : بويج بيروت 1930م .** [↑](#footnote-ref-49)
49. **(49) تهافت الفلاسفة** [↑](#footnote-ref-50)
50. **(50) محصل افكار المتقدمين والمتأخرين ، للرازي ، ص : 150 ، ط : القاهرة 1363 / وتقرير مذهبهم ، ص: 145 وما بعدها .** [↑](#footnote-ref-51)
51. **(51) الشهرستاني(ت 456) نهاية الاقدام في علم الكلام ، ص : 56 وما بعدها نشر : جيوم أكسفورد 1934 .** [↑](#footnote-ref-52)
52. **(52) المعتبر في الحكمه ، لأبي البركات ، ط : حيدر آباد 1358 ، ج : 3 ، الفصل : 4 ، ص : 156 .** [↑](#footnote-ref-53)
53. **(53) رسائل ابن تيمية (ت 729هـ ــ 1328م) ، ج : 5 ، ص : 153 ، ط : منار القاهرة 1349، ج : 4 ، ص : 16 ، وعن عدم علم الله ، ج : 3 ، ص : 160 ، وكذلك كتابه : الرد على المنطقيين ، ص : 118 وما بعدها ، ص : 270 وما بعدها ، و ص: 231 وما بعدها و ص : 463 وما بعدها ، ط : بمبامي 1949 .** [↑](#footnote-ref-54)
54. **(54) مقدمة وتحقيق كتاب : آراء أهل المدينة الفاضلة لنادر ، ص : 10 ، وما بعدها ، ط : بيروت 1959 .** [↑](#footnote-ref-55)
55. **(55) سويتمان :**

    **Sweet man 1 . w . : Isiam And Christian The Ologr Tondon 1945 . Vol . L . P . 113ff Waizer . R . : Creek Into Ar Abic . Oxford . Ig62 . P . 3 .** [↑](#footnote-ref-56)
56. **(56) ابن سينا بين الدين والفلسفة ، لغرابة ، ص : 186 ــ 197 ، ط : القاهرة 1948** [↑](#footnote-ref-57)
57. **(57) مقدمته للجزء الأول من الارشادات ، ص : 48 ــ 58 ، ط : 1957 .** [↑](#footnote-ref-58)
58. **(58) تاريخ الفلسفة العربية ، للفاخوري ، ص : 120، ج : 2 ، 1958 ، ط : بيروت .** [↑](#footnote-ref-59)
59. **(59) الفارابي ، للهاشم ، ص : 102 وما بعدها ، ط : بيروت 1960 .** [↑](#footnote-ref-60)
60. **(60) دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، للآلوسي ، ص : 114 وما بعدها ، ط : المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1400هـ .** [↑](#footnote-ref-61)
61. **(61) تهافت الفلاسفة ، ص : 110 .** [↑](#footnote-ref-62)
62. **(62) تهافت الفلاسفة ، ص : 110 .** [↑](#footnote-ref-63)
63. **(63) تهافت الفلاسفة ، ص : 110 .** [↑](#footnote-ref-64)
64. **(64) تهافت الفلاسفة ، ص : 110 .** [↑](#footnote-ref-65)
65. **(65) تهافت الفلاسفة ، ص : 131 وما بعدها .** [↑](#footnote-ref-66)
66. **(66) تهافت الفلاسفة ، ص : 160 وما بعدها .** [↑](#footnote-ref-67)
67. **(67) تحقيق مذهب الحق ــ باختصار ــ ، ص : 15 .** [↑](#footnote-ref-68)
68. **(68) تعليقات وحواشي رقم : 26 // كتاب تحقيق مذهب الحق ، ص : 107 ، 109** [↑](#footnote-ref-69)
69. **(69) دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ص : 161 ، 162** [↑](#footnote-ref-70)